مهداة

لكل من سبقني

في

استكشاف جزيرة العرب كنت أول

من اقتحم هذه البلاد المعطاءة بلاد العناد

والخوف والظمأ حيث أيدي الرجال المسعورة

تنبش الأرض التي ولدتهم لتصيب جزءًا هزيلاً من

الغنيمة التي منحتها الطبيعة بندرة شحيحة مقابل صلاتهم

ودموعهم وكدحهم ومع هذا، فهم سعداء في ثقتهم بالله بأنه هو

الرحيم على الدوام لأولئك المدفونين تحت سطح التربة،

تحت ظل شجرة عناب حينما يبعثون من الأجداث،

تحت سماء مرصعة بالنجوم، ليشهدوا

عظمته في عُلاه، وينعمون بأنهار

الجنـان في أحضـان حـب

قدسي.

obeikan.com

obeikan.com

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه

obeikan.com

السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءًا من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

obeikan.com

تصدير

لقد انقضت فترتان بالتتابع، أولاهما قبل ٢٠ عاماً وأخراهما قبل ١٥ عاماً منذ القيام بهاتين الرحلتين، واللتين تم جمع أجزائهما في هذه الصفحات، لتضع أمام العالم أولى الصور بالقياس الطبيعي للمساحة الضخمة التي تكوِّن النصف الجنوبي الغربي للمملكة السعودية، غير أن العالم كان مشغولاً بالحروب وإشاعات الحروب، مما أدى إلى تأخير طبع الكتاب لمدة سبع سنوات منذ اكتمال كتابته، ذلك لأن العالم لم يكن يشغل نفسه بهذه الأمور المحببة للغير وغير المربحة مثل جغرافيا الجزيرة العربية واجتماعيتها وتاريخها وآثارها. كان اتجاه العالم، كما في العديد من الحقول الإنسانية، هو أن يترك أمر المبادرة في هذه المجالات لأمريكا. ولم تكن أمريكا، لحسن حظ العالم، غائبة عن الصورة.

لقد احتضنت أمريكا الجزيرة العربية بصفة خاصة، وقد استجاب العرب لاهتمامها وتعاطفها معهم مما نتج عنه تغيرات في التركيبة الاجتماعية في بلادهم يترك الحكم النهائي فيها للتاريخ. لا يشك أحد في ما اكتسبته أمريكا مالياً واقتصادياً من علاقتها مع الجزيرة العربية التي امتدت إلى عشرين سنة، غير أن المكتسبات قد شارك فيها العرب أيضاً. وسيكون من عديم الجدوى أن يحاول المرء تقويم العائد الروحي أو الفكري الذي حققته للبلاد التي استمدت منها إضافة عظيمة لمصادرها الضخمة الخاصة.

أود أن أشير إلى شخصين أمريكيين لأجل إطراء خاص، وهما من جيل الشباب، جورج رنتز وبيلي ويندر، لإسهاماتهم التي لا تقدر بثمن، برغم أنها لم تنشر بعد، لتوضيح المراحل الأولى في تاريخ جزيرة العرب الوهابية. لا تحتاج

الجهود الخاصة بالمسوح الطبوغرافية والجيولوجية فوق مساحات شاسعة في شرق ووسط الجزيرة العربية بواسطة خبراء أرامكو للإطراء، من جانب شخص تفوقت أعمالهم فوق هذه الأراضي على أعماله المبكرة. ابدى العديد من الامريكان الآخرين، بصفة عامة، في مجالات الحياة المختلفة، في زياراتهم للمشاهد العربية، اتجاهاً حيوياً لتشجيع وتعزيز الدراسة للبلاد وكل ما يتعلق بها، إما بالاهتمام الشخصي لتفاصيل العديد من الأمور، أو بمساعدة الزوار ذوي الاهتمام القادمين عبر الأطلسي لرؤية أو امتلاك المعلومة عن مظاهر الحياة المختلفة في الجزيرة العربية التي تحظى باهتمامهم.

يكفي هذا الحديث عن الأمريكان في هذا الموضع. ويبدو أن الاهتمام بشؤون الجزيرة العربية، هناك في أمريكا قد حوفظ عليه على وتيرة أعلى مما في انجلترا، مثلاً: ويقال هذا دون إساءة لأحد، تقوم مؤسسات جديرة بالقبول مثل تشاثم هاوس Chatham House والجمعية الملكية لوسط آسيا Royel Central Asian Society، التي تنحو نحو تسفيه أنفسها بمحاولة النذر القليل بتقديمها خلفية اعتذارية مؤدبة للسياسة الرسمية البريطانية، مهما كانت، وتحت أية ظرف من الظروف. أما في أمريكا، فإن ما قامت به المؤسسة الخيرية لدراسة الإنسان (Found ation for the study of man)، والذي جاء نتيجة لأنشطتها يذهب في الاتجاه المعاكس في بحثها على استقلاليتها وإثاريتها. يقابل مثل هذه العوامل ما يعوضها في أمريكا، وذلك بوجود مؤسسات عديدة ذات طراز موضوعي هدفها الرئيس هو جمع وتوزيع المعرفة الحقيقية عن العالم وقاطنيه، دون محاباة لأي نوع من النظم السياسية.

ينطبق هذا بالتأكيد على المؤسسة التي اكتسبت عرفاني بالجميل وتستحق أن تنال اعتراف العالم بجميلها لقيامها بطبع هذا العمل. يعد «معهد الشرق الأوسط»، الذي أنشئ في واشنطن العاصمة عام ١٩٤٦م، إضافة حديثة للجمعيات العلمية في العالم، بالهدف المحبوب «تطوير الاهتمام الواسع بشؤون الشرق الأوسط لدى الشعب الأمريكي، عن طريق نشر معلومات صحيحة عن المنطقة». لهذا الهدف، فإن المؤسسة، برئاسة جورج كامب كيسر، رئيس مجلس المديرين والسيد هارفي بي. هال، بصفته مديراً للمطبوعات، قد أصدرت منذ عام ١٩٤٧م «مجلة الشرق الأوسط»، وهي مجلة فصلية تصدر أربع مرات في العام، إلى جانب إصدار «الرسالة الإخبارية» شهرياً. تقوم المؤسسة إلى جانب ذلك بتنظيم مؤتمرات سنوية لمناقشة شؤون الشرق الأوسط إلى جانب تنظيم محاضرات دورية في واشنطن وتقديم الدعم المالي والإشراف لطلاب مختارين. يمكن القول بأن ا«لمجلة» قد حققت شهرة عالمية لدراستها الموضوعية للشرق الأوسط ومشاكله، ولعل نجاحها في هذا الحقل هو الذي أدى إلى التطور السريع للمؤسسة: والذي أعنيه هو قرارها أن تتقدم بنشر الكتب الخاصة بالشرق الأوسط.

يتحدث اختيار المؤسسة لهذا العمل كتجربة أولى لها في حقل النشر أكثر مما يتحدث عن شجاعتها قبل أهلية الكتب لذلك، الذي لا يقدر مؤلفه عن فعل شيء إلا الإقرار بالعرفان بالجميل بقبولها لعمله والانغماس فيه. ولديّ أكثر من سبب لأكون أكثر من معترف بالجميل للعطف والمساعدة التي لا تنضب والتي احاطني بها المستر هارفي. بي، هال. الذي أدى دور «الصديق الموثوق» تجاه مؤلف ليس له به سابق معرفة، وتفصله عنه مسافة ٦٠٠٠ ميل من البحر واليابسة، وذلك لأنني ومنذ أن قمت بتسليم المسودة لم يكن لي دخل بعد ذلك بعمليات الطبع غير قراءة

واحدة لمسودات تجارب الطباعة. ويمتد إعجابي أيضاً إلى السيدة جين لندي للساعات العديدة المرهقة التي بذلتها في إعداد الفهرس. وأرفع إلى مطبعة جامعة كورنول شكري العميق لهذا العمل المحبوب التي أنجز في وقت قصير مذهل. كما أدين بالشكر العميق والعرفان بالجميل إلى السيد قاري أون والسيد توم بارقر من شركة أرامكو للمساعدة الكريمة التي قدماها بتوفير النقل الجوي لمسودات الكتاب من وإلى أمريكا ورسائل أخرى ذات علاقة بهذا العمل، كما أشكر مستر جورج رنتز لنقل المسوَّدة في المقام الأول إلى واشنطن. كما لا يجب عليَّ أن أنسى أنه ربما لم تكن هنالك مسودة أصلاً يقوم بإرسالها لولا العمل المخلص النابع من الحب الذي قامت به ابنتي باترشيا ـ اسمها الآن مابلين ـ، التي طبعت نسخاً عديدة من مسودتي خلال تلك الأيام التي كان من الممكن فيها أن تزيل قنبلة ما كتبته بيدي.

وفي الختام، كلمة حول الجزيرة العربية، خلال السنوات السبع التي انقضت بعد كتابة المقدمة لهذا العمل، استيقظت الجزيرة العربية، لتجد نفسها، حقيقة، في عالم جديد، مختلف تماماً عما عهدته الأجيال الجائعة في الماضي. لقد وصلت أخيراً لعنه الأرملة، التي لمستها بعصاتها السحرية أخيراً، فانبثق نفطها الغالي إلى العالم في نهر لا ينضب بمعدل ١٠٠,٠٠٠ طن في اليوم. وتجلب السفن العائدة إلى بواباتها بضائع العديد من القارات: رفاهيات إلى جانب ضروريات، وفوق كل ذلك وسائل إزالة الظمأ في صحاريها التي بدأت تزهر وتنتج الثمار. وتحولت بلدانها إلى مدن وقراها إلى بلدان. لقد خففت وسائل المتعة الجديدة من قسوة الطقس أو مهدّت للهروب منه. تحول اليأس إلى أمل. غير أن موجات الرخاء الاقتصادي سوف تأخذ وقتاً لتصل إلى الأجزاء البعيدة من الأرض. كما ليس من

المحتمل أن أية من هذه الأجزاء من البلاد التي جاء وصفها في هذه الصفحات لم يحس بعد بأثر الثروة الجديدة بدرجة ملموسة. يقال أن نجران قد تحولت إلى بلدة ذات حجم معتبر، غير أن التغيير الرئيس هناك هو الاختفاء التام للجماعة اليهودية الصغيرة بسبب هجرتها إلى فلسطين. تستعصي الجبال على أي تطور محسوس، بينما، انتفعت جازان والقرى الساحلية الأخرى التي عرفتها في أيام زياراتي، بلا شك من النشاط التجاري المتنامي خلال السنوات الأخيرة.

حدث تغيير عظيم، في حالة واحدة، مقارنة بالماضي. لقد زار العديد من الخبراء تلك الأراضي العذراء التي قمت برفع الحجاب عنها واكتشافها قبل ١٥ سنة فقط، ومعظمهم من الأمريكان -خبراء فنيون- ولكن لا أحد بينهم -حسب علمي- قد قام بنشر أي تقرير عام عن المناطق التي زاروها. لا بد من إضافة اسم جديد، بكونه نجماً ذا شأن، إلى قائمة المساهمين الرئيسين الذين أثرو معارفنا حول جنوب الجزيرة العربية والذين ورد ذكرهم في المقدمة. إنه ولفرد لشيجر الذي قدم إلى الجزيرة العربية بعد الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بالمشروع العالمي لمكافحة الجراد، وخلال السنوات القليلة التي أخلص فيها العمل للبلاد قبل مغادرتها عام ١٩٥٠م متجهاً إلى مراعٍ أخرى كانت رحلاته الواسعة في الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية، خاصة داخل وحول الربع الخالي، قد جعلته فوق الجميع بين كل الكشافين في مجال استكشاف الجزيرة العربية المشرِّف. يمكن أن نعد النهر الرئيس لاستكشاف الجزيرة العربية قد وصل إلى نهايته عند منتصف القرن العشرين، غير أنه يوجد العديد من الخلجان الصغيرة ومواضع مياه خلفية منعزلة لا تزال تنتظر اهتمام كشافين قادمين.

هاري سانت جون فيلبي

مكة: ١٦ سبتمبر ١٩٥١م

openkan.com

obeikan.com

مقدمة

يكمل هذا العمل وصفي لجنوب الجزيرة العربية الواقعة إلى الجنوب من الخط الذي يخترق شبه الجزيرة من ميناء العقير على ساحل الخليج العربي، عبر الرياض، عاصمة وسط الجزيرة العربية، إلى مكة وجدة. كان معظم البلاد أسفل هذا الخط، حينما ذهبت إلى جزيرة العرب قبل ٢٧ عاماً[١]. أراضٍ مجهولة، برغم التغلغلات العشوائية إلى أطرافها من قبل بعض الروَّاد المستكشفين الأوائل للجزيرة العربية. لا يوجد اليوم إلاَّ القليل من الجزيرة الذي لا يمكن تحديده على الخرائط بدقة. وأستطيع أن أدعي، دون غرور لا ضرورة لها، إن معظم الخرائط لهذه المساحة الضخمة قمت بعملها بنفسي. شارك آخرون في هذا العمل العظيم خاصة آر. إي. شيزمان، وبرترام توماس، وهارولد انجرامز، وفريا ستارك، وهوج سكوت، وبيري لا ماري، وآخرين. غير أنني شاهدت من الجزيرة العربية أكثر مما شاهده كل هؤلاء مجتمعين، وكل من قد سبقونا، وهو أمر طبيعي باعتبار أنني صرفت أكثر من ربع قرن لدراسة البلاد التي لم يستطع زملائي في المهمة -لحسن الحظ أو سوئه- أن يكرس أكثر من أشهر قليلة، أو على أقصى تقدير، سنوات قليلة. كانت نتائج أعمالي تعرض على الجمهور على فترات خلال هذه المدة الطويلة في سلسلة من المجلدات: "قلب الجزيرة العربية" (١٩٢٢م)، و"الربع الخالي"(١٩٣٣م)، و"بنات سبأ" (١٩٣٩م). وأنه وبإحساس ذاتي بالراحة أقوم بتقديم هذا العمل الحالي إلى العالم كتذكار لانتهاء جزء واحد على الأقل من المهمة التي نذرت نفسي لها منذ سنوات عديدة مضت.

كان هدفي الرئيس في هذا الكتاب، كما في غيره من كتب رحلاتي السابقة، هو أن أدون كل ما أعرفه - ربما أفضل أن أقول كل ما قد عرفته عن طريق

(١) في عام ١٩١٧م. (المؤلف).

ملاحظاتي الشخصية- للمنطقة التي يرد وصفها. كنت أحاول أن أقلل بقدر الإمكان من الفجوات في استكشافاتي وفي سجلاتي لغيري ليقوم بملئها، كما حاولت أن أكون شديد التدقيق في صحة كل ما أقوله عن الأماكن والناس. وبالطبع فنحن نقع في الخطأ من حين لآخر، وقد تكون هنالك أخطاء في هذا الوصف الضخم لبلاد شاسعة الأطراف، والذي من أجله أطلب فقط السماح من أولئك الذين سيكونون على أثري. من أجلهم قد كتبت - لأجل الخبير والمحترف أكثر منه للقارئ العادي- برغم أملي أن يكون هنالك البعض منا في هذه الأيام المزدحمة بالأعمال والذين لا يزال لديهم الفراغ لقراءة ما يكتب عن بلاد غريبة بعيدة وعن تجارب أولئك الذين غامروا بالدخول فيها واستكشاف أسرارها.

سيجدون في هذا العمل سرداً لمساحة كبيرة من الأرض لم تستكشف حتى الآن. تبلغ مساحتها حوالي ١٥٠,٠٠٠ ميل مربع، والتي لم تقع عليها عين أوروبي غيري. إنها تمتد فوق جبهة عريضة إلى مسافة ٣٠٠ ميل من الساحل الشرقي للبحر الأحمر عبر سهل تهامة الساحلي وأعلى الحاجز الجبلي العظيم الذي ترتفع قممه، حوالي ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، إلى أسفل فوق رفوف البازلت والصخر الرملي للهضاب العالية إلى أن تندمج داخل رمال الصحراء العظيمة في جنوب الجزيرة العربية. والتي تمتد عبرها الحدود الدولية بين مملكتين عربيتين حديثتين، المملكة العربية السعودية واليمن. يتباين الطقس داخل هذه الحدود من شبه استوائي إلى معتدل، وبينما تكون المياه متوافرة على أحد جانبي الحاجز الجبلي، وتكون شحيحة على جانبه الآخر. تحمل معظم الأودية التي تشق الجانب المتجه ناحية البحر أنهاراً دائمة الجريان حتى حافة سهل تهامة، الذي كان يزرع بكثافة في الأزمان الغابرة، ويعزى ذلك لوجود نظام قنوات محكم

أقيم في هذه الأودية. كما يوجد أدلة على قيام أنظمة للري في الأودية الكبيرة على الجانب الشرقي للحاجز الجبلي، الذي اعتمد، على أية حال، على المحافظة العلمية لمياه السيول بدلاً عن سخاء الطبيعة. وكما تتباين المجموعة النباتية والمجموعة الحيوانية في هذه المنطقة، يتباين الطقس والمناظر الطبيعية، بينما يتباين الإنسان نفسه من العناصر الزنجية المنتشرة في السهل الساحلي إلى العربي السامي الأصيل المستقر في المرتفعات وفي الصحراء. يكثر الإنسان في هذا الإقليم مقارنة بأجزاء أخرى من الجزيرة العربية، وكذلك كان منذ أزمان مبكرة حينما كانت البخور العربية تنتشر في أسواق العالم وأعطت لهذه الزاوية الجنوبية من صحراء شبه الجزيرة العربية الاسم المستعار الجميل «العربية السعيدة»[١].

تغيرت الأشياء منذ تلك الأيام، كما سيكتشف أي قارئ لهذه الصفحات ذلك بنفسه. غير أن الأشياء قد تتغير مرة أخرى. لقد نامت الجزيرة العربية وبعمق أكثر من اللازم، غير أنه توجد إرهاصات صحوتها حيث يطل عليها فجر مرحلة جديدة من جهة الغرب. من منا الذي يستطيع أن يعلم ما يخبئه اليوم للجزيرة العربية غداً؟ أو ما الهدايا التي ستقوم بمنحها للإنسانية عوضاً عن توابلها التي طواها النسيان؟ يستطيع هذا العمل أن يدعي بأنه قد عرض الجزيرة العربية كما هي في لحظة تحولها من الانحطاط إلى النهضة. وسوف تعود عظيمة كما كانت أيام أوجها في عصر سبأ.

هاري سانت جون فيلبي

١٨ اكول رووود جنوب غرب لندن

٦ مايو ١٩٤٤م

(١) «العربية السعيدة» Arabia Felix هو الاسم الذي أطلقه الكتاب الأغريق والرومان على جنوب الجزيرة العربية وفي أحيان كثيرة كان يقصد به جميع المنطقة الواقعة جنوب الخط الممتد من خليج العقبة وحتى مدينة بابل على نهر الفرات. وقد أطلق هذا الاسم بسبب الشهرة الكبيرة التي اكتسبتها الجزيرة نتيجة تصدير المواد العطريه والتوابل. (المراجعون).

obeikan.com